تاريخ العراق العثماني

٢٠٢٣ / ٢٠٢٤

المحاضرة الاولى الفصل الاول أ.د. نزهان محمود نصيف

العراق بين الاحتلالين المغولي والصفوي

خطة المغول العامة

كان غزو المغول للعراق جزءاً من حركة واسعة تستهدف اقامة امبراطورية مغولية نجحت فعلا تحت قيادة جنكيز خان (١١٥٤ – ١٢٢٧ م) بأحتلال جزء كبير من الصين وأواسط آسيا وايران وشرقي اوربا، وكان تقدم هولاكو الى العراق متمما لغزوهم للعالم الاسلامي الشرقي الذي بدأه جنكيز خان في ٦١٦هـ/١٢١٩م ؛ وقد ساعدهم على تحقيق هدفهم الأنحلال والأنقسام الذي يسود البلاد .

بدأ التهديد المغولي لتخوم العراق سنة ٦١٨ هـ / ١٢٢١ م ، وأرتبطت تتائجه بمصير الأقاليم المحيطة به من الشرق والشمال ولاسيما دولة خوارزم التي كانت بمثابة السد الذي يدرأ عنه الاخطار القادمة من الشرق ؛ لأن الخليفة العباسي لم يكن بأمكاناته العسكرية والسياسية المحدودة يستطيع مواجهة الامبراطورية المغولية التي ضمت ، وقت سقوط بغداد في سباط ١٢٥٨ م ، أغلب بلاد الصين وتركستان ومقاطعات من الهند وأجزاء كبيرة من روسيا وايران وآسيا الصغرى وكانت تملك مصادر هائلة من رجال والسلاح والمال .

وتمكن المغول من القضاء على الدولة الخوارزمية وقتل زعيمها جلال

الدين منكبرتي في ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م ، واتسمت غاراتهم بالسرعة والبطش والوحشية لأشاعة البلبلة والفوضى والرعب في نفوس السكان ومارست القوات المغولية في هجماتها ابشع اساليب القتك والتقتيل . ولم يظهر الخلفاء العباسيون المتأخرون اهتماما جديا بالخطر الداهم المحدق بادئ الأمر ، ولم يدركوا عميقا طبيعة ذلك الخطر الذي كان يتهدد بلادهم ، ولذلك لم يضعوا سياسة واضحة لمعالجته أو درئه او الاحتياط له ، وكل مافعلوه هو جمع قوات بصورة مرتجلة وارسالها الى مواطن الخطر القريبة ، ثم تسريح اكثر الجنود بعد تراجع العدو والانتظار الى حين ظهور الخطر من جديد ، في وقت كان المغول يشكلون اعظم خطر يهدد كيان الدولة والامة . وقد اخذت مظاهر الانحلال السياسي تتزايد بعد ان تولي المستعصم بالله الخلافة سنة ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م وقد تبوأها في احلك ظرف واجهته الدولة العباسية . ولم يكن لهذا الخليفة شخصية كفوءة تؤهله لحكم البلاد وزعامة العالم الاسلامي ، فقد كان لين العريكة مستضعف الرأي ضعيف التدبير غير عارف بمشاكل عصره ، غير مهيب في النفوس . وفي عهده تفرق الجند بعد ان قطعت ارزاقهم فلحق بعضهم بالشام واضطر بعضهم الى التسول .

احتلال العراق ومقاومة أهله

وفي ٦٥١ هـ / ١٢٥٣ م ارسل الأمبراطور مانغوخان هولاكو لفتح آسيا الغربية ، فأخذت جيوشه تتحرك من مختلف المواقع التي كانت ترابط فيها وفي خلال تقدمه البطيء دمر قلاع الأسماعيلية واسر زعيمهم خورشاه في ٦٥٤ / ١٢٥٦ ثم وصل همدان في السنة التالية . ومن هناك ارسل الى الخليفة يتهدده ويتوعده مطالبا اياه بالتسليم ورفض الخليفة ذلك الطلب

وفي اوائل محرم ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م اشتبكت القوات العباسية بقيادة

الدويدار الصغير مجاهد الدين ايبك ، بالقوات المغولية عند الدجيل (بين بغداد وسامراء) وانتهت المعركة بتحطيم الجيش العباسي . وتقدم هولاكو من خانقين بالجيش المغولي الرئيسي المؤلف من ٢٠٠٫٠٠٠ محارب الى بغداد ، فنزل الجانب الشرقي منها في اواسط محرم ، واطبقت قواته عليها من كل الجهات وبدأ القتال في اواخر محرم ، ونجح المغول في اختراق السور من بعض المواضع .

وفشلت محاولات الخليفة في التوصل الى حل سلمي ، فاضطر الى الخروج مع اسرته لمقابلة هولاكو ، فحجزوا ثم قتلوا . ودخل الغزاة بغداد في ٥ صفر ٦٥٦/١٢٥٨ وفتكوا بأهلها سبعة ايام او تزيد ، ولم يفرق فيها بين الرجال والنساء والاطفال حتى لم يبق من اهل البلد ومَنْ النجأ اليهم من اهل السواد الا القليل،والقيت النار في معظم البلد،و «استولى الخراب على المدينة وكانت القتلى في الدروب والأسواق كالتلول ، ووقعت الامطار عليهم ووطأتهم الخيول فاستحالت صورهم وصاروا مثلة بتشوه الخلقة ... » وقدر عدد مَنْ قتل من اهل بغداد بما يزيد على ٨٠٠٫٠٠٠ نفس ، عدا من القي من الاطفال في الوحل ومن هلك في القنى والآبار والسراديب فمات جوعا وخوفا ، وربما كان في ذلك الرقم شيء من المبالغة الا انه يدل على حجم المذبحة المريعة التي تعرض لها سكان بغداد . وبعد انتهاء عمليات الاستباحة ، امر هولاكو بأصلاح بعض ماخرب وترميم الاسواق ورفع جثث القتلى من الناس والحيوان . ورحل هولاكو عن المدينة بعد ان فوض امرها الى جماعة معينة لاعادة تنظيمها ، وابقى على التشكيلات الادارية كما كانت في العصر العباسي الاخير . ووضع على رأس الادارة بعض المسؤولين في العهد السابق للاستفادة منهم ريثما تتكون مجموعة من

الاداريين المغول . ومن هؤلاء مؤيد الدين بن العلقمي وزيرا ، وفخر الدين الدامغاني صاحب الديوان والقضاء ، ونجم الدين بن الدرنوس ، وعين لحماية للمدينة على بهادر ، وأبقى فرقة من الجيش المغولي مؤلفة من ثلاثة آلاف محارب حامية للمدينة . وارسلت قوات مغولية الى انحاء العراق الاخرى فأخضعت مدنه وقراه ، ورفضت اربل وواسط الخضوع للمحتل الغاشم ، وأبدت من المقاومة مادفع بالغزاة الى تشديد حصارهم عليهما، فكانت خسائر ابنائها نحو ٤٠٫٠٠٠ قتيل .

وثارت الموصل في ٦٥٩ / ١٢٦٠ وشجعها الانتصار الكبير الذي حققه العرب في معركة عين جالوت في تلك السنة . واستطاعت بقيادة الملك الصالح ابن اسماعيل ، ان تقاوم القوات المغولية مدة تزيد على السنة عجز فيها الغزاة عن اختراقها . ولكن فقدان المدينة للمؤن اجبر اميرها على طلب الصلح فوافق القائد المغولي سنداغو ، ولكن لما خرج اليه الأمير وولده قتل الولد وارسل الامير وأخاه الطفل ولقبه الكامل مع بعض اصحابهما الى هولاكو ، فأمر الطاغية بسلخ وجه الصالح بن اسماعيل وهو حي ثم قتل اخاه مع من رافقهم من الاتباع . ودخل الجيش المغولي الموصل في رمضان ٦٦٠ / ١٢٦١ فقتل غالب اهلها وأخذ منهم اسرى حتى خوت المدينة ، وبعد انتهاء استباحتها ورحيل القوات المغولية عاد اليها من كان مختبئا من اهلها في الجبال والمغارات .

وهكذا خضعت اغلب مناطق العراق ، وقتل عدد كبير من سكانه وخربت اجزاء كبيرة منه ، وقتل معظم افراد الاسرة العباسية ما عدا انفار قلائل استطاعوا الفرار والنجاة ومنهم ابو القاسم احمد بن الظاهر بأمر الله الذي اعلنه سلطان مصر الظاهر بيبرس سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م خليفة بأسم المستنصر بالله ، ولم تكن له من السلطة الا الاسم .

المحاضرة الثانية

ادارة الاحتلال

تحول العراق بعد هذه الكارثة الى ولاية من ولايات الامبراطورية الايلخانية المترامية الاطراف التي شملت في اوج قوتها البلاد الواقعة ما بين نهر جيحون والمحيط الهندي ومن السند الى الفرات مع جزء من آسيا الصغرى وبعض القوقاز ، قاعدتها اذربيجان ، وتابعة من الناحية الشكلية الامبراطورية المغولية . بعدما كانت بغداد قاعدة الخلافة وعاصمة العالم الاسلامي مدة تربو على خمسة قرون اصبحت تبريز ثم سلطانية قاعدتي الايلخانيين الرئيستين ، وكان طبيعيا ان تتوجه عناية حكام هذه الامبراطورية الى ايران دون العراق .

وقسم العراق على ولايات ثلاث :

١ ـ العراق ، وهو القسم الأهم ، ويمتد مابين الزاب الأعلى الى عبادان طولا ، ومن القادسية الى حلوان عرضا .

٢ ـ الجزيرة الفراتية ، وفيها الموصل وسنجار والعمادية واربيل .

٣ ـ بلاد الجبل وفيها مدينة شهرزور .

وكان العراق احدى الولايات الأيلخانية المهمة التي كانت تسمى ممالك ، ويدعى حكامها احيانا ملوكا . وكانت عاصمته بغداد وترد في كتابة المعاصرين بأسم مدينة السلام ، وقد زارها الامراء الأيلخان عدة مرات .

والغيت في هذا العهد اكثر الدواوين وبقي ديوان الوزير وديوان الزمام ثم ادمج الديوانان في ديوان واحد صار رئيسه صاحب الديوان وهو الحاكم الأعلى في العراق ، وهو الذي يعين كبار الموظفين وغيرهم . والى جانب صاحب الديوان ، هناك كاتب السلة ، وهو مسؤول عن كتّاب الولاية وبيده اسرارها ، ويطلق عليه احيانا اسم (كاتب العراق) . وبقى منصب قاضي القضاة وهو الذي يعين القضاة في مختلف انحاء البلاد ويتولى امر مراقبتهم

ونقلهم وعزلهم • وبقيت الحسبة وصاحبها المحتسب ومهمته الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ومراقبة الاسواق كما كانت هناك وظيفتان اداريتان هما الصدر والناظر • والصدر يطلق على رئيس الوحدة الادارية ويشرف على ادارة القوات المسلحة في تلك الوحدة وحماية أمنها ، اما الناظر فهو موظف من اولى مهماته النظر في الشؤون المالية •

واهم الوظائف العسكرية : الشحنة ونائب الشرطة • فأما الشحنة فكان كالقائد العسكري الاعلى ومهمته المحافظة على الامن والقضاء على الثورات وحركات التمرد ومراقبة صاحب الديوان لضمان ولائه للدولة ، ولهذا فان أمر هذه الوظيفة بأيدي المغول عامة الى آخر العهد الايلخاني • اما نائب الشرطة فانه مسؤول عن المحافظة على الأمن في بغداد •

وكانت ادارة الامبراطورية الأيلخانية لا مركزية ، ويتمتع حاكم العراق بدرجة من الأستقلال في ادارة شؤونه مقابل تقديمه المال اللازم لخزينة الأمبراطورية وارسال القوات العسكرية المناسبة له في حالات الحرب• ولكن هذه اللامركزية لم تكن كاملة لأن الحاكم الأيلخان كان يزور العراق ويقضي الشتاء بين ربوعه في بعض الاحيان • كما كان يرسل مشرفا يستقصي شؤونه عن كثب ويرفع اليه تقريرا عنه •

وكانت سلطة الأيلخان غير محدودة ، وله حق قتل من يريد ولم تكن للشعب حقوق بل كانت عليهم واجبات اهمها الطاعة ودفع الضرائب المتنوعة • ومن اهم سمات حكومة العراق في هذا العهد عدم الاستقرار والفساد •

الا ان ذلك العهد لم يخل من اعمال عمرانية نادرة ولا سيما في عهد الأيلخان السابع غازان محمود (١٢٩٥ ــ ١٣٠٣ م) الذي اصبح الاسلام في عهده دين الدولة الرسمي • الا ان تلك الاصلاحات كانت وقتية

ذات اثر محدود فاستمر الامن مضطربا خارج المدن ، واستمرت البلاد مفككة القوى مهيضة الجناح لما اصابها من الخراب . ومن المعلوم ان رخاء العراق يعتمد بالدرجة الاولى على الزراعة التي يقوم ازدهارها على نظام الري . ولكن السلاطين الايلخانيين وحكامهم في العراق لم يهتموا بتعمير الانهار والقنوات ، ولا بفتح قنوات جديدة ، ومن نتائج هذا الاهمال ان الفيضانات تسببت دمارا كبيرا ولعل من اشهرها غرق بغداد في السنوات ٦٧٦ و ٦٨٣ و ٧٢٥ ، وغرق الحلة والكوفة في ٦٨٥ .ومن الطبيعي ان ظروف البلاد الاقتصادية والمعاشية المنخفضة والتخلف وقلة عدد المستشفيات وعدم العناية بها ، ادى الى ان يتعرض العراق لهجمات شديدة من الامراض الوبائية والمتوطنة .

ومع قلة الأهتمام الذي وجهته الدولة الى حالة العراق الأقتصادية ، كانت الضرائب ثقيلة وخاضعة لأهواء الحكام وجشعهم الذي لم يعرف الحدود . ومن تلك الضرائب : ضريبة الخراج وضريبة الرؤوس او الجزية وهي عامة على الجميع ، وضريبة الأسواق والعقارات والتمغات وضريبة المراعي وحصة الديوان من الاوقاف ومقدارها العشر ، اضافة الى ما كانت تحصل عليه من غش النقود وانقاص نسبة الذهب والفضة فيها ومصادرة الموظفين ، واخيرا ما كان ينفقه اصحاب الدور على الجنود الذين كانت تفرض اقامتهم عليهم احيانا . اما اسلوب جباية الضريبة فكانت على انواع ثلاثة هي : الضمان والجباية المباشرة والأقطاع. وكان التعسف السمة البارزة في اساليب الجباية المختلفة . وقد ادى ثقل الضرائب وتعسف جبايتها وضعف العناية بنظام الري ، الى تدهور احوال البلاد اقتصاديا وازدياد الخراب في بعض المدن فأنحسرت المظاهر الحضارية وانتعشت البداوة مكانها .

المحاضرة الثالثة

الغزو التيموري

كان للنتائج التي اسفرت عنها تلك الصراعات أسوأ الأثر في احوال العراق الادارية والسياسية ، وجاءت الكارثة الكبرى بعد سنوات قليلة حين وصلت طلائع الموجة المغولية الثانية التي لم تقل هولاً عن تلك التي بدأها جنكيز خان ، وكان تيمورلنك زعيم هذه الموجة الاخيرة التي بدأت اندفاعها من اطراف مدينة سمرقند في ١٣٦٩ ، ولم ينته القرن الرابع عشر ، حتى اجتاحت القسم الغربي من اواسط آسيا وايران والعراق والأناضول والهند واطبقت طلائع القوات التيمورية على تبريز في ٧٨٨ / ١٣٨٦ بعد ان احتلت السلطانية فانسحب السلطان احمد الى بغداد . ثم زحف تيمور الى بغداد في ٧٩٥ / ١٣٩٣ ، ودخلها بعد ان هرب أحمد الى الشام ، ونهب الغزاة المدينة ولجأوا الى التعذيب الوحشي للحصول على الاموال ، والاعتداء على الأعراض . وانتشرت قوات تيمور في العراق واحتلت معظم مدنه . ولكن في نهاية السنة التالية ، استغل السلطان احمد انشغال تيمور في حربه على القبيلة الذهبية في القفجاق واستطاع بمساعدة برقوق سلطان المماليك في مصر ، وبدعم القبائل العربية من استعادة بغداد ، وطرد الوالي التيموري مسعود السبزواري كما نجح في اعادة سلطته الى بقية المدن العراقية . الا انه لم يشعر بالأطمئنان ، وظل هاجس تهديد تيمور مسيطرا عليه ، ومع انه نجح في افشال الهجمات التيمورية مابين سنتي ٨٠١ / ١٣٩٨ ــ ٨٠٢ / ١٤٠٠ ، فأنه قرر مغادرة بغداد . وبعد ان ولي عليها الأمير فرج (فروخ) ، توجه بصحبة حليفيه كل من امير قبيلة الخروف الاسود التركمانية ، وقره يوسف حاكم ديار بكر ، ولجأ عند السلطان العثماني بايزيد الأول (١٣٨٩ ــ ١٤٠٢) واحكمت قوات تيمور الحصار على بغداد في ٢٦ ذى القعدة ٨٠٣ / ١٤٠١ ، وبعد صمود دام اربعين يوما دخلتها القوات الغازية ، وجرت مذبحة عامة للسكان واستبيحت المدينة ثلاثة ايام

اقيمت خلالها عدة ابراج من رؤوس القتلى • ورافق عمليات القتل تهديم للمنشآت العمرانية • وترك تيمور بغداد بسبب تعفن هوائها من تتن الجثث وعاد الى تبريز ، بعد ان الحق العراق بالجزء الغربي من امبراطوريته بادارة ابنه ميران شاه ، كما ولى على بغداد حفيده ابا بكر •

احدث غزو تيمور الثاني للعراق فوضى عامة في البلاد استمرت اربع سنوات وادت في النهاية الى انحسار النفوذين التيموري والجلائري وقد شهدت هذه المرحلة صراعات متداخلة بين كل من تيمور والسلطان احمد وقره يوسف •

الصراع على السلطة

اغتنم السلطان احمد فرصة زحف تيمور الى الاناضول في ٨٠٤/١٤٠٢، فجمع اتباعه وعاد الى العراق عن طريق الفرات حيث التحق به عدد آخر من الاتباع ، ونجح في استعادة بغداد ومد سلطانه على المنطقة الوسطى من العراق • وحاول اعادة الحياة الى العاصمة ، ولكن سلطته كانت ضعيفة ، كما تواصلت هجمات القوات التيمورية وتمرد عليه الامراء ، واعلن حليفه قره يوسف انشقاقه ، ونجح في الاستيلاء على بغداد في اواخر ٨٠٥ / ١٤٠٢ مجبرا السلطان احمد على الفرار من جديد الى الشام ، وفي السنة التالية ، هاجمت قوات تيمور بغداد للمرة الثالثة واحتلتها وفر قره يوسف الى الشام حيث تمت تسوية خلافاته مع السلطان احمد في المنفى •

ان السياسة التي انتهجها تيمور طوال سنوات ٧٩٥-٨٠٧/١٣٩٣ - ١٤٠٥ ، كانت لها آثار سيئة في أوضاع العراق ، فقد اودى الغزو بحياة عدد كبير من الناس بسبب الهجمات المتكررة ، كما سبب في تشريد عدد آخر من السكان وتهجير أصحاب الخبرات العلمية والحرفية الى مدن

ما وراء النهر . وكان أثرها واضحا في خفض عدد السكان وتدهور النشاطات الاقتصادية والفكرية والعمرانية .

توفي تيمور في ٨٠٧/١٤٠٥ في أثناء زحفه لغزو الصين ، وتلت وفاته اندلاع الاضطرابات في ارجاء مملكته التي لم يوحدها ولم يمنعها من التفكك سوى سطوته وبطشه . لذا فقد تشجع السلطان احمد وقره يوسف على ترك الشام وأستئناف نشاطيهما مرة اخرى في العراق واذربيجان . فأستعاد احمد بغداد في محرم ٨٠٨ / ١٤٠٥ بعد ان فر حاكمها التيموري دولة خواجة ايناق الى فارس اما قره يوسف فذهب الى تبريز . وبذل احمد جهودا لأعادة تنظيم البلاد وتحصين بغداد ولكن الخلاف مع قره يوسف كان حائلا دون الأستقرار . ولهذا قرر السلطان حسم الموقف ، فهاجم تبريز في ٨١٣ / ١٤١٠ بجيش كبير ، ولكن التوفيق جانبه ، اذ اندحرت قواته في المعركة ولقي مصرعه وهو يحاول الفرار ، وتقدم جيش قره يوسف بقيادة ابنه محمد شاه الى بغداد ودخلها في جمادى الاولى ٨١٤ / ١٤١١ ، وكان ذلك خاتمة لعهد الحكومة الجلائرية وبداية لعهد دولة الخروف الأسود التركمانية .

سار الجلائريون على النظم التي كانت قائمة في البلاد ولم يضيفوا شيئا جديدا الى ماكان عند اسلافهم من النظم الأدارية والحضارية والاقتصادية، ولكن الاهتمام الذي وجه الى العراق وبغداد خاصة ازداد في هذا العهد . فبغداد كانت عاصمة للدولة قرابة نصف قرن ولكن الجهاز الاداري كان مضطربا يسوده الانحلال . ويعزى ذلك الى الحروب بين الجلائريين والحكومات المجاورة ، وهجمات تيمورلنك المتواصلة على العراق التي لم تفسح المجال للحكام في التفكير باصلاح جدي . كما ان عوامل اخرى منها ارتباك الادارة وقلة الكفاءة والضبط بين الموظفين ادت دورها في عدم رسوخ السلطة الجلائرية في المدن جميعا .

الارض والزراعة

كان انهيار الدولة العباسية نكسة في الحالة الحضارية التي عليها العراق آنذاك ، فقد فتح الباب امام غزوات اجنبية عاتية ، ادنى منه حضارة ، واقرب الى الحالة البدائية ، وادى الى تقلص في دور المدينة ، وفتور في نشاطاتها الاقتصادية ، الحرفية والتجارية ، أخذا بالظهور في الحقبة اللاحقة ، وبخاصة في القرن الرابع عشر ، حين ضعفت المدينة وقل نشاطها ، وطغت العلاقات الاقطاعية على العلاقات التجارية المدنية حيثما كان بامكان الحكام الجدد ممارسة سيطرتهم بالقوة المسلحة ، اما المناطق الأخرى ، وهي التي تمثل مساحات كبيرة من ارض العراق ، فقد توزعتها القبائل القوية فيما بينها لتمارس عليها اقتصاداً رعوياً غالباً .

لقد اقتصرت نظرة الحكام الى الريف على انه مصدر ثروة يمكن استثمارها في تمويل عملياتهم العسكرية ودفع نفقات جيوشهم الأجنبية ، فوزع المغول ، منذ مطلع القرن الرابع عشر ، اراضي العراق على جندهم بدل رواتبهم ، ولكنهم احتفظوا ـ جرياً على التقليد الاسلامي ـ برقبة الارض للدولة ، بيد انه حدث في عهد السيطرة الجلائرية ان أخذ نوع من الاقطاع ينتشر ، ولو بحدود ضيقة ، عرف باسم (الادرار) وهو يمنح على سبيل الهبة للاشخاص الذين يقدمون للدولة خدمات معينة ، ولا يشترط ان يكونوا من العسكريين ، ليكون بمثابة راتب لهم . والمهم فيهذا الادرار انصاحبه كان يمنح من الاعفاءات والامتيازات ما حوله لأن يكون ملكية مطلقة . وبخاصة ما عرف باقطاع (ادرار مقاصة) ، فبموجب هذا الاقطاع تبقى الأرض أو القرية ملكاً مؤبداً لصاحبها ولذريته من بعده، ولا يدفع عنها أيةضرائب(*) .

(*) يعرف هذا النوع من الاقطاع بـ « التيول » بينما يطلق على صك منحه اسم « سيورغال » .

على حكمها واليان خلال سنة انتهت بتقدم جيش الآق قوينلو بقيا
حسن الطويل الذي دخل بغداد وقتل واليها .

المحاضرة الرابعة الآق قوينلو ١٤٦٧ ـ ١٥٠٨

وهي من بين الامارات التي اقامتها العشائر التركمانية
تركستان الغربية الى اذربيجان وجهات الاناضول في اواخر
عشر ، وعرفت باسمها لاشتهارها باقتناء (الشياه البيض) . و
بداية ظهورها ، قوة ونفوذ ، نظراً لاتباعها سياسة مؤيد
وحصل زعيمها قره عثمان على مكانة مرموقة ، وثبت أقدام امار
وفي عهد حفيده حسن الطويل ازدادت قوة الامارة ونافس
لقره قوينلو ، وتمكنت من القضاء عليها في المعركة الحاسم
يار بكر عام ٨٧٢ / ١٤٦٧ ، حينما صرع عاهلها جهان شاه
ستلكاتها كافة ومنها العراق .

تولى ولاية بغداد في العهد الجديد مقصود بن حسن
راق شيئا من الاستقرار والعناية ، ولكن س
رتباك في الامارة اثر وفاة حسن الطويل في ٨٨٢ / ٧

عهد خليفته خليل الذي لم يدم سوى أقل من سنة أظهر فيها تعسفاً ، وانغماساً باللهو والترف . فاندلعت حركات التمرد ، اذ ثار ابن عم السلطان خليل مراد بن جهانكير والي بغداد ، وحاول احتلال مدينة السلطانية ، الا انه اندحر امام قوات السلطان وقتل . والتف الامراء الناقمون على خليل حول أخيه يعقوب وأسندوا ثورته في ديار بكر ، فتشجع الامير يعقوب ، وتقدم بجيشه الى اذربيجان ، وعند نهر خوى اوقع هزيمة ساحقة بقوات السلطان وقتله واعلن نفسه سلطاناً في تبريز عام ٨٨٣ / ١٤٧٨ وظل يحكم حتى سنة ٨٩٦ / ١٤٩٠ وتمتعت الامارة خلال تلك الحقبة بشيء من الاستقرار .

وبوفاة يعقوب تجددت الاضطرابات ، وكثرت الحروب الاهلية بين مختلف الطامعين من السلالة الحاكمة ، وادى ذلك الى تفكك سلطة الآق قوينلو . وأصبح العراق اقليماً مهملاً من دولة مجزأة يتنافس فيها الطامعون لفرض سيطرتهم بالسلب تارة والقتل تارة اخرى . فقد خلف يعقوب ابنه بايسنقر وهو فتى في العاشرة من عمره ، فطمع الأمير رستم بن مقصود بالعرش ونجح في دحر بايسنقر ودخل العاصمة تبريز في ٨٩٧ / ١٤٩١ مجبراً السلطان على الفرار .

وتتابعت حركات التمرد والعصيان في عهد الغاصب الجديد ولم تنته الا بعد ان تمكن الامير أحمد من احفاد حسن الطويل من دحره وقتله في ٩٠٢ / ١٤٩٥ . واعلن احمد نفسه سلطاناً ، ولكن حكمه لم يدم أكثر من ستة أشهر قتل في نهايتها على ايدي الامراء الآخرين . وأعلن ثلاثة من الامراء في وقت واحد انفسهم سلاطين وكان العراق وبلاد فارس من حصة مراد وهو احد هؤلاء السلاطين الثلاثة .

من هذا الاستعراض السريع للمنازعات والحروب الاهلية التي عمت الامارة ، يتبين لنا ان العراق في هذا العهد مَرّ بسلسلة من الاضطرابات كانت جزءاً من فوضى عامة سفكت خلالها دماء غزيرة ارضاء لجشع المتنافسين

وتسابقهم على السلطة ومحاولاتهم جمع وتكديس الاموال وصرفها على ملاذهم الخاصة ، ولم يكن احدهم اذا ما نجح مؤقتاً في الوثوب الى الحكم ، يفكر بالقيام بأي اصلاح كان يحفر ترعة او يشيد قنطرة او يصون سداً أو يستصلح تربة او يرعى عالماً . تلك كانت بعيدة عن عقول هؤلاء الحكام الذين جاءوا في ظروف غير طبيعية ، عانى فيها العراقيون كثيراً ، وكتب عليهم ان يحيوا حقبا من الفزع والحروب الاهلية استنزفت خيرات البلاد . ولكل هذا فليس من الغريب ان نرى انهيار هذه الامارة على يد طامع جديد من سلالة اخرى هو اسماعيل الصفوي ، مؤسس الدولة الصفوية .

الصفويون

ينتمي الصفويون في الأساس الى اسرة تركمانية صوفية تنتسب الى الشيخ صفي الدين المتوفي عام ١٣٣٤م . واشتهر هذا الشيخ في اردبيل بطريقته الصوفية التي حققت نفوذاً واضحاً في انحاء اذربيجان . وتزايد نفوذ ومكانة هذه الاسرة ، فلم ترتح لها حكومة القره قوينلو واضطهدتها مما دفع رجال الاسرة الى الاحتماء لدى حسن الطويل زعيم الآق قوينلو . فلما قوض هذا دولة القره قوينلو ، ارتفع شأن رجال الاسرة الصفوية .

استغل اسماعيل بن حيدر الصفوي حالة الفوضى والتمزق في حكومة الآق قوينلو فقد هاجمهم ودمّر نخجوان ودخل تبريز في مطلع القرن السادس عشر حيث أعلن نفسه شاهاً . وخلال سنوات قليلة من استيلائه على اذربيجان ودخوله تبريز ، حقق سلسلة من الانتصارات مكنته من مد حكمه على ارجاء ايران .

اما سلطان القره قوينلو فقد توجه الى شيراز ومنها توجه الى بغداد محاولاً اعادة الحياة الى امارته المتداعية ، وحاول مصالحة الشاه اسماعيل

وارسل اليه وفداً على ان يبقى في بغداد ويدفع جزية للشاه ، الا ان اسماعيل لم يسمح للوفد بالوصول اليه وامر فذبحوا جميعاً .

قضى السلطان مراد في العراق خمس سنوات يشوبها الذعر والقلق بسبب تصاعد واتساع قوة خصمه اسماعيل الذي بسط حكمه على كل الهضبة الايرانية ثم استولى على ديار بكر بين عامي / ١٥٠٥ و ١٥٠٧م ، ثم وجه انظاره الى العراق . وكانت تطلعاته الى العراق تعبر عن أسباب سياسية واقتصادية . فالعراق الزراعي الخصب يمكن ان يسد الكثير من حاجات سكان الهضبة الايرانية الفقيرة . كما ان الاستحواذ على بغداد ـ قلب العالم الاسلامي ـ يعطي للشاه اسماعيل مكانة رفيعة لدى المسلمين ، طبقاً للاحلام التي كانت تساوره .

احتلال بغداد

كان السلطان مراد بن يعقوب يدرك عجزه عن الوقوف وحده امام أطماع الشاه ، ولذلك استنجد بامارة ذي القدر في الاناضول ولكنها كانت تعاني الخور والضعف في أواخر أيامها ، ولهذا باءت محاولات الاسناد التي قدمها أميرها علاءالدين له في٩٠٩ و٩١٤هـ/١٥٠٢ و١٥٠٧م بالفشل ،وتعرضت اراضي الامارة في الاناضول الى تخريب شامل ومذابح ماحقة مروعة ارتكبتها قوات الشاه . فاتجه السلطان الى قانصوه الغوري ـ آخر حكام المماليك في مصر والشام ـ الذي كان يدرك خطورة استيلاء الشاه اسماعيل على العراق ، وقد اتخذ الغوري بعض الاجراءات الاولية لاعداد حملة ضد الشاه ، وفرض الضرائب على اهل دمشق لتمويل كتائب المشاة التي ستحشد في حلب استعداداً لمجابهة الشاه . ولكنه في واقع الأمر ، لم يكن مستعدا عملياً لنجدة مراد بن يعقوب وانقاذ العراق . فالظروف العامة التي كانت دولة المماليك تواجهها حينذاك ، لم تسمح للسلطان الا بمناورات عسكرية فقط

دون ان تورطه في حرب حقيقية على الشاه . فالتهديد البرتغالي للبحار العربية ، جعلت السلطان يوليه اهتماماً كبيراً ، مفضلاً عدم فتح جبهة جديدة غير مستعد لها . وهكذا ترك صاحب العراق يواجه مصيره بمفرده . ولذلك لم تكن مهمة الشاه صعبة خلال عملياته العسكرية التي انتهت باستيلائه على بغداد وبقية انحاء العراق في ٩١٤ / ١٥٠٨ .

أستطاع الشاه اسماعيل التقدم الى بغداد بجيش كبير ، وارسل في المقدمة فرقة من الفرسان القزلباش يقودها حسين لاله . وتقدمت قوات الغزو من كرمنشاه الى خانقين ، وبالرغم من أن حاكم بغداد استعد لمواجهة تلك القوات ، الا انه وجد نفسه أضعف من ان يستمر في الدفاع عن المدينة التي لا تربطه بها رابطة قوية ، لاسيما بعد انتشار الروح الانهزامية بين قواته التي ارعبتها أنباء الفظائع التي كان ينزلها الشاه اسماعيل بالقوى التي تقف امامه ، لهذا سارع الى الفرار قاصداً مدينة حلب ومن هناك اتجه الى ديار بكر . ودخلت قوات حسين لاله بغداد بدون مقاومة ، وفي ٢٠ جمادى الثانية ٩١٤/ ١٥٠٨ دخلها الشاه اسماعيل ، وعين خادم بيك والياً على المدينة واطلق عليه لقب (خليفة الخلفاء) ، وهذا يعكس غطرسته المقيتة واطماعه وطموحه ومحاولته فرض نفوذه على العالم الاسلامي . وبالرغم من أن الشاه دخل بغداد سلماً ، فانه أمر بمذبحة راح ضحيتها عدد كبير من السكان دون مبرر ، واشار المؤرخ ابن شدقم الى ذلك بقوله : « فتح (الشاه) بغداد وفعل باهلها ... ما لم يسمع بمثله قط في سائر الدهور بأشد انواع العذاب » .

اتبع الشاه اسماعيل سياسة تفريق صفوف الأمة الواحدة ، فتظاهر بالاهتمام ببعض المراقد الدينية المقدسة ، بينما كان في الوقت نفسه ، يقوم بضرب القبائل وسلب اموالها ، وباضطهاد قسم من السكان وتخريب مزاراتهم .

الصراع مع العثمانيين

المحاضرة الخامسة

ينتمي العثمانيون الأوائل الى أحد عشائر قبيلة الغز التركية ، تعرف ب
ايي ، هاجرت من المشرق الى الاناضول في القرن الثالث عشر للميلاد ،
سقط تحرك المغول في اواسط آسيا . وتمكن عثمان (الذي ولد على ح
لروايات التاريخية سنة ١٢٥٨ ، أي سنة احتلال المغول بغداد) من تأ
مارة قوية استظلت بدولة السلاجقة الروم أول الأمر ، وتوسعت على ح
لدولة البيزنطية وبسقوط دولة السلاجقة على يد المغول الايلخانيين ، تم
الامارة من استقطاب عدد من الامارات التركية المسلمة في الاناضول ،
الامارات الناشئة على انقاض دولة السلاجقة ، واستأنفت توسعها غرباً ليتح
منذ سنة ١٣٤٥ ، الى اوربا الشرقية ، حيث استولت على اجزاء كبيرة منها
تنجح غزوات تيمورلنك المدمرة سنة ١٤٠٠م في القضاء على الدولة العثم
رغم سيطرته على قسمها الآسيوي كله ، اذ سرعان ما استطاعت ان تعيد ح
في هذا القسم ، وان تتوج أعمالها العسكرية ، في عهد محمد الفاتح ، بف
القسطنطينية سنة ١٤٥٣م ، وضم اجزاء اخرى من اوربا الشرقية . و
انتهى القرن الخامس عشر حتى كانت الدولة العثمانية تشمل الاناض

واليونان وشبه جزيرة البلقان وجزائر بحر ايجه وجزيرة في جنوب ايطاليا .
وفي عهد سليم بن بايزيد (سليم الاول) ١٥١٢ــ١٥٢٠ اتخذت الدولة اخطر قراراتها حين استدارت لاول مرة منذ تأسيسها الى الشرق العربي . وقدر للعراق ان يتحول الى ميدان لصراع دموي بين السلالات الحاكمة في ايران والعثمانيين استمر بشكل متقطع حتى القرن التاسع عشر ، ذلك ان تقدم الصفويين نحو الغرب من ايران شكل بالنسبة الى السلطان العثماني خطراً لا يمكن تجاهله . كما ان اطماع الشاه اسماعيل التي لاتعرف الحدود، دفعته للعمل على مد سلطانه الى الاناضول وبلاد الشام من جهة ، والى الوقوف موقفاً متخاذلاً من التهديد البرتغالي المتسم بروح صليبية عارمة ضد العالم الاسلامي من جهة اخرى . وفي الوقت الذي كان فيه العثمانيون يركزون نشاطهم في شرقي اوربا والبلقان ، ويبذل المماليك ، في السنوات الاخيرة من عمر دولتهم ، محاولات مستميتة من اجل التصدي للخطر البرتغالي في البحر الأحمر والمحيط الهندي ، كان الشاه اسماعيل يسعى الى استغلال الاوضاع القائمة لتحقيق اطماعه متجاهلاً المصالح الاسلامية . فرسم سياسته التوسعية على أساس التحالف مع البرتغاليين في الخليج العربي ، والتنسيق مع القوى المعادية للدولة العثمانية ودولة المماليك في مصر والشام . وبعث بوفوده الى أوربا مفاوضاً ملوكها للتحالف ضد سلطان مصر واقتسام ممتلكاته ، على ان تكون مصر وفلسطين من نصيبهم ، بينما يستحوذ هو على بقية بلاد الشام ، وبذلك يطل على البحر المتوسط . وقد تزامنت مشاريع الشاه هذه مع سعيه الى انتزاع الاناضول وانهاء الدولة العثمانية . ادرك السلطان سليم الاول خطر الصفويين فتحرك لاجتثاث ذلك الخطر . وبعد ان قضى على انصار الصفويين في الاناضول

تحرك على رأس جيش جرار صوب الشرق في ربيع ١٥١٤ باتجاه تبريز عاصمة الصفويين • ودحر في چالديران ٩٢٠/١٥١٤ الجيش الصفوي الذي يقوده الشاه اسماعيل في واحدة من أشد المعارك ضراوة ، وانتهت بتحطيم الجيش الصفوي وفرار الشاه جريحاً من ميدان المعركة • وتقدم سليم فدخل تبريز في ٤ أيلول • وبعد ان امضى في المدينة ثمانية أيام ، غادرها عائداً الى بلاده • وقد تضافرت عوامل عدة حالت دون تمكن السلطان من مواصلة تعقب اسماعيل والقضاء على الدولة الصفوية ، ، منها : قلة المؤن وامتداد خطوط المواصلات ووعورة المسالك وتقاعس الفرق الانكشارية (وهي عماد الجيش العثماني) عن التقدم •

أسفر الانتصار العثماني في جالديران عن نتائج مهمة ،فمع انه لم ينه الدولة الصفوية الا انه اصابها بضربة قاسية وجعلها تقبع في ايران ، كما سعى الشاه الى تأكيد تحالفه مع اوربا من اجل اضعاف العثمانيين فارسل وفوداً الى صربيا وهنغاريا ودول اوربية اخرى لهذا الغرض • وفيما يخص العراق ، فان العثمانيين مدوا سلطانهم على اجزائه الشمالية ، ومنها الجزيرة والموصل وسنجار وتلعفر والعمادية واربيل وكركوك ، وهيت وحديثة وعانة •

وقد زعزع انتصار العثمانيين النفوذ الايراني في المنطقة وهز كيان الموالين لهم ، ومهد السبيل لطردهم من بقية اجزاء العراق • ولم يترك احتلال الصفويين للعراق اثراً مهماً في تاريخ العراق سياسياً أو اقتصادياً ، حيث لم يتغير ما كان سائداً فيه في الحقب السابقة سوى تبديل اشخاص الحكام بآخرين ، وظل نظام الاراضي كما كان عليه في الماضي ، ولم يحدث ما يشير الى اهتمام باصلاح طرق الري •

عهد الحكم العثماني الأول

المحاضرة السادسة

لط العثمانيين العسكرية

في مطلع ربيع الثاني ٩٤٠/١٥٣٣ ، أصدر السلطان سليمان القانوني
ه الى الصدر الاعظم ابراهيم باشا بالتوجه على رأس قوة من ٨٠٠٠٠ رجل
اذربيجان • ونجح هذا في اختراق اذربيجان واستولى على تبريز في تموز
١٥ • ولتحقيق نتيجة حاسمة ضد الصفويين ، سار السلطان على رأس
ش في ذي القعدة من السنة نفسها متجها الى تبريز • وفي نهاية ربيع الاول
٩٤١/١٥٣٤ ، التقى السلطان بصدره الاعظم قرب تبريز • ومن هناك تحرك
رأس القوات العثمانية متجها الى السلطانية جنوبي بحر قزوين للقاء
اسب والاستيلاء على عاصمته قزوين والاجهاز على الدولة الصفوية .
قع هزيمة كبيرة وماحقة بالجيش الصفوي بالقرب من نهر
ل او زون) في الجنوب الشرقي من اذربيجان، وانفتح الطريق امامه الى قزوين.
ن ما فشل فيه الشاه من مواجهة الجيش العثماني نجح فيه الطقس وسوء
حوال الجوية ، حيث هطلت الامطار الغزيرة وتساقطت الثلوج واشتد البرد

وساءت الطرق فأصبح من العسير سير العربات وجر المدافع ، مما أثر كثيرا في نفسية الجنود العثمانيين ، فجعل تحقيق الهدف من التقدم امرا مستحيلا . فأمر السلطان جيشه بالانحراف نحو بغداد . ويعلق المؤرخ النهروالي على ذلك بالقول : « ... نزلت الثلوج الكثيرة وكأنها الجبال وتوارى الفرس امام السلطان وصار الشاه يخادع ويخاتل فلزم التوجه الى بغداد لصون الرجال» .

وسلك السلطان طريق همذان بهدف السيطرة على الطريق التي تربط بغداد بالشمال والشرق ، وبذلك قطعت القوات العثمانية امكانية نجدة الصفويين لحاميتهم في العاصمة العراقية ، وأثر تقاعس طهماسب عن مواجهة الزحف العثماني سلبا في الامراء الخاضعين له والمنتشرين على الطريق الى بغداد ، فاعلنوا خضوعهم للعثمانيين . وعند اقتراب الجيش العثماني من بغداد هرب حاكمها محمد خان تكلو بعد ان يئس من وصول الامدادات اليه وثبت لديه ان الجيش الايراني الرئيس لم يجرؤ على خوض معركة توقف تقدم السلطان في قلب ايران نفسها .

احتلال بغداد وتوطيد السلطة الجديدة

ودخل الصدر الاعظم بغداد في ٢٤ جمادى الثانية ٩٤١/٣١ كانون الاول ١٥٣٤ ، وبعده بيومين دخلها السلطان سليمان وسط مظاهر الابهة والفخامة . ومن الجدير بالذكر ان السلطان لم يسمح لجيشه بدخول المدينة خوفا من عدم امكانية كبح جماحهم ، وشدّد على عدم الحاق الاذى بالاهالي ، فكسب رضاهم . كما سعى الى تعزيز ولاء السكان فقام بزيارات للاماكن المقدسة ورصد الاموال لها ، وامر ببعض المشاريع العمرانية ومن اهمها بناء سد ترابي وقاية كربلاء من الفيضان وتوسيع الترعة المعروفة بالحسينية لجلب المياه

العذبة من الفرات اليها فامتدت في الاراضي المحيطة بها البساتين وحقول القمح • وهرع الأعيان وشيوخ القبائل والوفود من مختلف المدن الى بغداد لتقديم ولائهم للسلطان العثماني ، كما وصل بغداد الشيخ راشد ابن أمير البصرة مغامس بن مانع ، يعلن انضمام البصرة والحويزة ولورستان الى العثمانيين ، وبذلك سيطر العثمانيون على واحد من الطرق التجارية المهمة التي تربط الشرق الاقصى باوربا ، كما سيطروا على الرأس الشمالي للخليج العربي •

وترتبت عليهم نتيجة لذلك ، مسؤوليات دفاعية جديدة ضد البرتغاليين في منطقة الخليج العربي • فأمر السلطان باعداد الاسطول العثماني لمنازلة البرتغاليين الذين تزايد نفوذهم في البحار العربية، ثم عيّن حاكم ديار بكر سليمان باشا الطويل والياً على بغداد ، وابقى فيها حامية مؤلفة من ١٠٠٠ جندي مزودين بالاسلحة النارية و ١٠٠٠ فارس ، وهيأ لها تموينا كافياً للدفاع عنها في حالة تعرضها لهجوم ايراني ، وعاد بطريق اذربيجان • واضطر الشاه طهماسب الى طلب الصلح ، ووافق سليمان على الطلب واخلى تبريز مقابل تعهد الشاه بعدم الاعتداء •

الادارة

بعد ان سيطرت الدولة العثمانية على العراق قسمته على أربع ولايات : بغداد ، وفيها ثمانية عشر سنجقا أو لواء اضافة الى المركز ، والموصل ، وفيها ستة سناجق، وشهرزور وفيها واحد وعشرون سنجقا بما فيها القلاع، والبصرة، ولم يكن فيا سناجق لتركيبها العشائري وتجبى ضرائبها بالالتزام • وقد

حدثت فيما بعد تبدلات فرعية في هذه التقسيمات • ويرأس الجهاز الحكومي الوالي وغالبا ما يكون برتبة وزير • ولوالي بغداد صلاحيات اوسع مما لولاة الولايات الاخرى ، فكان له حق تعيين بعض الموظفين ومصادرة الاموال وهو مسؤول عن الادارة المدنية والعسكرية ، وعليه ضمان ولاء ولايته والمحافظة على أمنها وقيادة الجيش في الحملات العسكرية ويساعد الوالي موظف يعرف باسم كتخدا (خففت فيما بعد الى كهية) ، وهو يعاون الوالي في الشؤون العسكرية والسياسية وينوب عنه عند غيابه • اما الدفتردار فهو المسؤول عن الاحوال المالية بتسجيل ايراداتها ومصروفاتها في سجل خاص • ويلي الوالي في المكانة الاجتماعية القاضي ، فهو مسؤول عن تطبيق العدل والاهتمام بالمسائل الشرعية والاشراف على جمع الضرائب ومراقبة الاسواق ، وغالبا ما تكلفه الحكومة المركزية بمراقبة سلوك الوالي • ويساعد القاضي في تنفيذ اوامره موظفان ، يلقب الاول بـ (صوباشي) ـ وهي رتبة عسكرية ـ وهو بمثابة رئيس للشرطة في وقت السلم وقائد فرقة في وقت الحرب • والثاني يعرف باسم (احتساب أغاسي) ـ أي المحتسب ـ ، وواجبه معاونة الصوباشي والاشراف على تنفيذ الاوامر ومراقبة الاسواق • وبالاضافة الى هذه المناصب هناك : اغا الانكشاريةوهو قائد الحامية، و (المكتوبجي) ـكاتب الرسائلـ و (مهردار) ـحامل الاختامـ و (خزنة دار) ـأمين الصندوقـ و (احتشامات أغاسي) ـ رئيس التشريفات ـ ، و (روزنامةجي) ـ كاتب الوقائع اليومية ، وغيرهم من الموظفين الاقل مرتبة •

توطيد السلطة

وكانت كبرى المشكلات التي واجهت الحكم العثماني للعراق في ولايتي

شهرزور والبصرة . فالاولى في منطقة الجبال على الحدود مع الدولة الصفوية ، ولهذا تعرض الحكم العثماني فيها الى الاخطار باستمرار . اما البصرة ، فهي تقع في منطقة قبائل شديدة المراس ، وكانت دائما تنازع سلطات بغداد . وقد أبدى العثمانيون مرونة مع الاسر المحلية المتنفذة التي أعلنت ولاءها . ومنها اسرة الشيخ راشد بن مغامس التي كانت تحكم البصرة ، وأقرها السلطان سليمان القانوني في حكمها ، كما مر بنا . ولكن اجراءات العثمانيين في تثبيت سلطانهم على منطقة البصرة والتحكم بشبكة الطرق التجارية ، دفعت اسرة راشد الى الثورة . فكانت هذه الثورة من جهة ، ورغبة العثمانيين في السيطرة الفعلية على رأس الخليج العربي ، من جهة اخرى ، سبب قيام الحملة العثمانية الكبيرة التي وجهت الى البصرة بقيادة والي بغداد أياس باشا في ١٥٤٦م . وسعى القائد العثماني في خلال تقدمه الى اخضاع القبائل المنتشرة بين بغداد والبصرة، ونجح في الحاق الهزيمة بشيخ مشايخ آل قشعم الذي يلقب بشيخ العراقين ـ أي شيخ الكوفة والبصرة ـ ثم هزم آل مغامس ودخل البصرة حيث ربطها بالحكم العثماني المباشر . وبانهيار زعامة آل قشعم ، برزت زعامة قبيلة المنتفق التي اصبح لها النفوذ فيما بعد . غير أن الاجراءات التعسفية التي اتخذها العثمانيون ادت الى ثورة تزعمها علي بن آل عليان كبير مشايخ الجزائر(*) في ٩٥٦/١٥٤٩م . وكلف السلطان والي بغداد «تمرد علي باشا» لاخماد الثورة، واصدر امره الى والي سيواس محمد باشا البالطه جي للتقدم على رأس قوة من الانكشارية للمساعدة في العملية . وتقدمت

(*) تشمل الجزائر منطقة المستنقعات ما بين الكوفة وواسط في الشمال والبصرة في الجنوب وفيها حوالي ثلاثمائة جزيرة صغيرة اقيمت على بعضها القلاع .

العثمانيون يستعيدون حكم العراق

المحاضرة السابعة

العثمانيين لاستعادة العراق

سقوط بغداد في ايدي الصفويين أمراً في غاية الخطورة بالنسبة العثمانية ، وعلى الرغم من مرحلة الضعف التي كانت تمر بها نها لم تتوان عن محاولة « استعادة أنبل مدن آسيا » . فارسلت هـ /١٦٢٥ حملة بقيادة الصدر الاعظم حافظ باشا فتقدم وحاصر تة اشهر ، ولم ينجح في دخولها . فتقدم الشاه عباس ن جيشه للاحتفاظ بالمدينة . ووقعت اشتباكات ن العثماني والصفوي . ولكن طول مدة الحصار من جهة ، وما ه القوات العثمانية من نقص في المؤن والذخيرة والخيول من جهة فعت بالانكشارية الى التمرد على الصدر الاعظم ، مما اجبره حاب .

رسلت الدولة العثمانية حملة ثانية بقيادة خسرو باشا في ١٠٣٩/ ١٦٢ م حاصرت بغداد اربعين يوما ، انسحب بعدها خسرو الى دون ان يحقق غرضة ولما ولى السلطان مراد الرابع نجح في القضاء التسيب والفتنة في الدولة ، واعاد القانون والانضباط واهتم غداد واعد حملة استعد لها استعدادا دقيقا .

حملة مراد الرابع واحتلال بغداد

تحرك السلطان على رأس قواته من اسكودار في شوال سنة ١٠٤٧ هـ / ١٦٣٨ م ، والتحقت بالجيش خلال التقدم قوات من عدد من مدن الاناضول اضافة الى عدد كبير من القبائل العربية بقيادة (امير الصحراء) ابن ابي ريشة ، وقام رجال هذه القبائل بدور مهم في تمهيد الطريق امام قوات السلطان وتزويدها بالمؤن ايام حصارها لبغداد . وفي منتصف تشرين الثاني ١٦٣٨ ، وصلت القوات العثمانية قرب بغداد وأقيم معسكر السلطان بالقرب من الاعظمية .

وكانت بغداد تقوم على الجانب الشرقي من دجلة ، ويحيط بالمدينة سور طوله ثلاثة اميال مبني بالآجر ويكتنفه خندق عرضه ستون ذراعاً يمده نهر دجلة بالمياه . وكان قسم من السور المحيط بالجهة الشرقية من المدينة دائريا تقريبا ويبلغ ارتفاعه ما بين ١٠ الى ١٥ ذراعا . وتنتصب في الزوايا الرئيسة من السور ابراج كبيرة اقيمت فيها المدافع ، في حين تقوم ابراج أصغر تقع على مسافات قصيرة فيما بينها يبلغ عددها مائة وثمانية عشر برجاً في جوانب السور المواجهة للبر وخمسة واربعين برجاً تشرف على النهر ، وكان بين كل برج وآخر خمسون فتحة لاطلاق نيران المدافع والبنادق ، وبين كل فتحة واخرى خطوة واحدة . وفي الزاوية الشمالية الغربية من السور تنتصب القلعة الداخلية التي يطوقها حائط مفرد يبدأ من باب المعظم الى دجلة ، ترتفع عليه ابراج صغيرة نصبت فيها المدافع ، ويحدق بسورها خندق ضيق . وهذه القلعة تضم الثكنات ومخازن الذخيرة والمؤن بالاضافة الى الخزينة ، والى جوارها من جهة الجنوب يقوم السراي حيث مقر الوالي . وفي الاسوار ابواب اربعة ، ثلاثة منها من جهة البر وهي : باب المعظم في الشمال ، والباب المظلم او باب كلواذى في

الجنوب ، والباب الابيض او الباب الوسطاني في الشرق . اما الباب الرابع فهو يواجه النهر ويسمى باب الجسر . والاخير يربط ما بين بغدا والجهة المقابلة من دجلة حيث تنتصب قلعة الطيور .

كان عدد افراد الحامية الايرانية يزيد على ٣٠٠٠٠ رجل معززة بالسلاح والذخيرة . وبعد حصار دام اربعين يوما تمكنت القوات العثمانية من السيطرة على الابراج كافة . فطُلِبَ التسليم وايقاف القتال ووافق السلطان على الطلب ، وتم الاتفاق على انهاء المقاومة وانسحاب الايرانيين من بغداد . ولكن بعض المدافعين رفضوا الانصياع لأمر التسليم فاستمرت الاشتباكات وعمت الفوضى وحوادث النهب والقتل ، وكانت خسائر الجانبين كبيرة جداً ، وقتل معظم رجال الحامية . ولما توقفت الاشتباكات أصدر السلطان اوامره بالمحافظة على حياة السكان المدنيين وعدم التعرض لممتلكاتهم . ثم اتخذ الاجراءات لتنظيم ادارة بغداد ، فعين كجك حسن أغا الانكشارية والياً كما ترك حامية من ٨٠٠٠ انكشاري بقيادة بكتاش اغا وأمر الصدر الاعظم باعادة بناء الاسوار والاستحكامات . ثم غادر بغداد عائداً الى القسطنطينيه .

تثبيت حدود العراق الشرقية

وامضى الصدر الاعظم مصطفى باشا قرابة الشهرين في بغداد اهتم خلالها باعادة بناء التحصينات ، وبناء ماتهدم من المنازل والاسواق ، واعادة زرع البساتين . وقرر تأمين بغداد من الشرق ، فتحرك على رأس قواته متجهاً شرقاً ، ثم وصل اليه مبعوث من الشاه طالباً انهاء العداوات . ووافق الصدر الصدر الاعظم على العرض وارسل رسالة الى الشاه طالباً منه ان يرسل شخصاً مخولاً بصلاحية مطلقة لتحقيق شروط السلام بين الدولتين . وعين الشاه مبعوثاً لهذه الغاية

وجرت المفاوضات بين الجانبين في زهاب ، وفي ١٤ محرم ١٠٤٩هـ/١٧ مايس ١٦٣٩م تم التوصل الى معاهدة لتحديد الحدود ، وتعد هذه المعاهدة اكمل المعاهدات التي عقدت بين الجانبين العثماني والايراني حتى ذلك الوقت ، وقد ظلت تلك الحدود ، على الرغم من عدم دقة رسمها ، ثابتة تقريباً ، لأكثر من قرنين من الزمن . وشكلت معاهدة زهاب هذه ، نقطة الارتكاز حتى منتصف القرن التاسع عشر ، عندما قامت لجان مشتركة على رسم الحدود . ومما جاء في تلك المعاهدة ان تظل ضمن ولاية بغداد جصان وبدرة ومندلي ودرتنك ودرنة والسهول الواقعة بين مندلي ودرتنك . كما تبقى اجزاء من هارونية التي تقطن فيها قبائل الجاف وضياء الدين ضمن حدود الولاية . وتهدم قلعة زنجير ، والقرى الواقعة غربها تابعة للسلطان ، اما القرى الواقعة شرقها فتابعة للشاه . وخط الحدود في شهرزور هو الشعب المؤدي اليها . وتظل تابعة للسلطان قلعة قزلجة مع توابعها . ويتعهد الشاه بعدم التحرش والتعرض لقلاع اخسخة وقارص وشهرزور وبغداد والبصرة والمناطق الواقعة ضمن الحدود ، وبعدم تشجيع حركات التمرد ضمن هذه الاماكن .

الاحوال العامة

سببت سنوات الاحتلال الصفوي وحروب الاسترداد العثمانية الكث من الدمار والخراب في بغداد . وقد تميز تاريخ ولاية بغداد حت اوائل القرن الثامن عشر بالاضطراب وكثرة تغيير الولا اذ حكم في الحقبة ١٠٤٩ هـ ـ ١٦٣٩ م /١١١٦ هـ ـ ١٧٠٤ م تسعة وثلاث والياً ، لم يترك واحد منهم عند عزله او نقله أثراً يذكر باستثناء اربعة احدهم ببناء ثلاثة ابراج لسور بغداد وجامع الأزبك ، وبنى الثاني ج

الخاصكي ، وقام الثالث بتطهير نهر الدجيل ، اما الرابع فبنى مدرسة قرب جامع القمرية. وقد ساعدت سرعة تغيير الولاة على خلق حالة عدم الاستقرار .

ومن المظاهر الاخرى لهذا العهد، كثرة تمردات الانكشارية، واضطراب حالة الأمن خارج اسوار المدن وادى ذلك الى نتائج اقتصادية سيئة في الزراعة والتجارة . ورافق ذلك كثرة الاوبئة والفيضانات والقحط التي اسهمت في تعطيل الفعاليات البشرية . وبلغ التدهور الاقتصادي درجة بحيث ان علي باشا والي بغداد سنة ١١١٥ هـ / ١٧٠٣ م ارسل في طلب ٤٠٠ كيس اقجة لدفع رواتب الجند المحليين بسبب عجز خزينة الولاية . وذكر الرحالة تافرنييه بغداد في منتصف القرن السابع عشر ان عدد جوامع بغداد عندما زارها كانت خمسة ، اثنان منها حسنا العمارة ، وانه كانت فيها عشرة خانات كلها غير عامرة الا اثنين منها كانا أحسن من سائرها « والمدينة من حيث الحكم العام غير عامرة خالية من مظاهر الجمال عدا الاسواق المسقفة .. » .

اما ولاية البصرة ، فقد انتهى حكم اسرة افراسياب في ١٠٨٠ هـ / ١٦٦٩م أثر حملة قادها والي بغداد قرة مصطفى وهرب على اثرها آخر امرائها حسين افراسياب، وبذلك ربطت الولاية بشكل مباشر بالدولة. ولكن الولاية كانت اوضاعها غير مستقرة وعانت موجات من الفوضى والاضطراب سببتها ثورات العشائر . وقد تمكن مانع بن مغامس شيخ قبائل المنتفق من السيطرة على البصرة عام ١١٠٦ هـ / ١٦٩٤ م ولم يتمكن والي بغداد من استعادتها . واعقب ذلك دخول حاكم الحويزة المدينة وضمها الى ممتلكاته عندما اعيدت المدينة للسيطرة العثمانية أثر حملة قام بها والي بغداد ، بعد ان تقوى بنجدات عثمانية ارسلت الى العراق .

باشا وهو في طريقه
باشا في ولاية بغداد وقيادة الجيش العثماني

كان عهد احمد باشا استمراراً لعهد ابيه ، وسار على سياسته في اقرار الاستقرار والامن . وتميز عهده باختدام الصراع العثماني – الايراني ، فقضى شطراً كبيراً من سني حكمه في صد التدخلات الايرانية في شؤون العراق، مما أدى الى عدم توفر الوقت المناسب للقيام باعمال عمرانية .

بدأ احمد باشا عهده باحتلال همذان في ١١٣٧ هـ /١٧٢٤ م وبعد سنتين اندلعت الحرب بين العثمانيين والشاه اشرف الافغاني ثم عقد الصلح بين الطرفين في ١١٤٠ هـ /١٧٢٧ م اعترف فيه اشرف للعثمانيين بالسيطرة على المناطق الغربية والشمالية الغربية من ايران .

غزوات نادر شاه للعراق

كان ظهور نادر قلي ، الذي عرف فيما بعد بنادر شاه ، في ايران ايذاناً بتحولات عسكرية وسياسية مهمة في المنطقة ، عانى منها العراق والخليج العربي الكثير . فلقد استطاع هذا القائد المغامر الذي ينتمي الى قبيلة من افشار التركمانية ان يستغل حالة الفوضى والتمزق التي سادت ايران على اثر الغزو الافغاني والروسي والعثماني ، ليوسع من نفوذه بصفته زعيماً لقبيلته من ناحية ، وحاكماً على احدى مدن خراسان ، فادعى انه انما يتوسع باسم سيده طهاسب مرزا المدّعي بالعرش الصفوي ، فضم خراسان وبلاد الافغان ، مما دعى بالشاه